الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

المدارس المعجمية العربية في ضوء النظريات اللسانية الحديثة

The Arabic Lexicography Schools in the Light of Modern Linguisti Theories

د. ليلى صديق
جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم
sadik_leila@yahoo.fr

ملخص

لقد شهدت الحضارة العربية الإسلامية صناعة معجمية ، وخاصة في القرون الهجرية الأولى، حيث تعد إسهاماتها ذات أهمية تاريخية كبرى بالنظر إلى تنوعها نهجا ، ومادة، وتأليفا ، وبالنظر إلى حجمها وكثافتها.

كما اهتم بعض المحدثين بتصنيف هذه التآليف المعجمية إلى مدارس ، والسؤال الذي نطرحه هنا : على أي أساس صنفت هذه المعاجم ؟

هل هو الجانب التطبيقي أي من حيث الترتيب و التبويب لمداخل المعاجم ؟ أم من نظرة وفكر المعجميين للغة العربية ؟.

و سنحاول الإجابة على هذا السؤال من خلال عرضنا لبعض الآراء في نظر بعض الدارسين المحدثين .

الكلمات الدالة: المعاجم، ، المدرسة، النظرية، الترتيب، المنهج، التقليد.

Abstract

Some lexicographers regard the creation of dictionaries as a problematic issue when it comes to searching the accuracy of any given words meaning in other languages which requires its equivalent prior to the other step of creating and constructing the definition of the word itself, especially if the latter exists and is used in the other language and culture. Since there are some words and expressions that are hard to translate for their inexistent usability in other cultures, the present paper attempts to address the first Arab lexicographers and their creation of dictionaries along with tracing the evolution of such translations that differs in both form and content. The paper also sheds light upon the different schools of lexicography as categorized by modern lexicographers as well as delineating the basis on which they relied upon to separate and categorize these schools.

Key words: *Lexicography, Schools of Arab Modern Lexicography, Construction of Dictionaries, Theory, Classification, creativity, commonness, Originality, Modernization.*

مقدمة

لقد ابتدأت الأبحاث اللغوية في القرن الأول للهجرة، تَتَغيّا تفسير غريب القرآن، وغريب الحديث، وغريب ما ورد في الشعر العربي ونوادره، وكان أن فكّر رجل من نوابغ العرب، هو الخليل بن أحمد الفراهيدي في أسلوب يؤدّي إلى جمع العربية وتدوينها في دفّتي كتاب، ووضع نهجا يقوم على قواعد رياضية بحتة، وإذا ما طبّقت كما أرادها أن تطبّق، أمكن إيجاد معجم يحتوي على ألفاظ اللغة العربية بأسرها.

ثم تتابعت تصانيف العلماء في المعجمية الى غاية القرن الثاني عشر، يبحثون ويؤلّفون ويجمعون، فجمع بعضهم غريب اللغة ونوادرها، وجمع آخرون ما يذكّر ويؤنّث، أو ما يفرد ويثنّى ويجمع، أو ما يتّصل بالحيوان، أو بالنبات، أو بالمطر والأنواء وما شابه ذلك.

كما قام آخرون بالتأليف في الطبقات أو بالمواضع والبلدان، وهناك من بحث الاشتقاق في اللغة، أو جمع المترادف والمتشابه، أو عني بما يلحن فيه، أو بالمعرّب والدّخيل، ...الخ.

1ـ تعريف مصطلح المدرسة

لقد جاء معنى كلمة مدرسة في أساس البلاغة بمعاني:التكرار، و التجربة ، والطريق، قال الزمخشري: "درسته الرياح درسا :تكررت عليه فعفته. ورجل مُدّرس :مجرّب،....درس الكتاب للحفظ :كرر قراءته درسا ودراسة...وطريق مدروس كثر مشي الناس فيه حتى ذلّلوه .وهذه مدرسة النّعم طريقها ونلاحظ[1] من خلال هذا التعريف أنه لا يبعد عند بعض المحدثين قال حلام الجيلالي :"المدرسة تطلق على جماعة من الباحثين تعتنق مذهبا واحدا و المذهب في تعريفه مجموعة مبادئ وأراء متصلة ومنسقة لفكر أو مدرسة، وبذلك تكون المدرسة وليدة عدد من الأشخاص في زمن معيّن أو أزمنة متلاحقة.

2ـ تعريف مصطلح النظرية

وهي "فرض علمي يربط عدّة قوانين بعضها ببعض، ويعيدها إلى مبدأ واحد يمكن أن نستنبط منه حتما أحكامًا وقواعد" [2]

ونستنتج من هذه التعاريف، أن المدرسة تتشكل نتيجة عدّة عوامل من أهمها:

- اتّجاه فكري أو مذهبي في علم واحد يؤمن به أصحاب هذه المدرسة أو تلك.

- عمق نظري يتباين مع نظريات أخرى مغايرة، ويؤدّي إلى استنباط أحكام وقواعد.

- مواكبة زمنية ومكانية، تطول أو تقتصر، تتسع أو تضيق حسب عمر هذه الأفكار، وحسب الضرورة الاجتماعية الداعية إلى تلبية حاجات النّاس[3].

وفى السياق ذاته حاول بعض المحدثين دراسة المعاجم العربية بتصنيفها إلى مدارس ، وفي رأي بعضهم أيضا أن التأسيس العلمي للمدرسة في مجال المعجمية أقرب إلى النظرية كما أن مصطلح المدرسة في رأي البعض قد يكون بمعنى نظرية.

ويرى حلام الجيلالي أن كثيرًا ما كانت سمة المدرسة عند هؤلاء الدارسين لا تتجاوز الجانب التطبيقي المتجسّد في الترتيب الشكلي لمداخل المعجم، ولم تكد تصل إلى العمق النظري المعجم، وصلة ذلك بنظرة المعجمي إلى اللّغة، وعلاقة ذلك بجمع المادة اللغوية وترتيبها وتعريفها وضبط دلالتها.

ولعلّ ذلك السبب هو ما جعل جل دراساتهم تقليدية لا تستند إلى نظريات اللسانية .

الحديث الّذي يؤكّد على الربط بين النظرية والتطبيق، وعلى صلة النظرية المعجمية بالبعد الفكري والاجتماعي للمعجمي؛ إذ لاشكّ في أن لكلّ معجمي خلفيات فكرية، واتّجاهات فكرية مذهبية تشكّل لديه بعدًا نظريًا يكون له الأثر المباشر في بنية معجمه من حيث الجمع والوضع والتعريف[4].

ونظن إنّ إغفال بعض الدّارسين المحدثين للجانب النظري الفكري للمعجمين القدماء سببه اعتقادهم وإيمانهم بفكرة التقليد عند المعجميين القدماء في تأليفهم المعجمي، قال محمد أحمد أبو الفرج:"هناك ظاهرة عامة واضحة في المعاجم العربية، نحب أن نلفت النّظر إليها هنا، وهي أن المتأخرين اعتمدوا على السابقين لهم عامة إلى حدّ بعيد، ورغم ذلك فقد كان هناك تميّز في المعاجم سنشير إلى بعضها على طول دراستنا هذه، ولكن الروح العامة كانت روح التقليد، فعندما ألف ابن دريد معجمه الجمهرة بعد تأليف الخليل للعين، وحاول أن يرتب الألفاظ فيه بطريقة مختلفة لاعتقاده أن ترتيب العين كان صعبًا على الدارسين اعترف بالتبعية له فقال عنه، "وكل من بعده له تبع، أقر بذلك أم جحد"[5].

ويعدّ تقسيم المعاجم العربية إلى مدارس، تقسيما وصفيا قديما

في الدراسات العربية يتخذ ترتيب المداخل المعجمية أساسا له، وقد أخذ به جل الدارسين المحدثين، فذهب "حسين نصار" إلى تقسيم المعاجم العربية إلى أربع مدارس هي:

- مدرسة الترتيب المخرجي: ويضع فيها كتاب العين للخليل ابن أحمد الفراهيدي (ت.175هـ)، والمحيط الصاحب بن عباد (ت.385هـ)، والمحكم لابن سيده (ت.458هـ).

- مدرسة الترتيب الألفبائي على أول الكلمة: ويدرج تحتها كلاّ من: جمهرة اللّغة لابن دريد (ت.321هـ) وكتابي مقاييس اللّغة والمجمل لأحمد بن فارس (ت.375هـ).

-مدرسة الترتيب الألفبائي في آخر الكلمة: ويدرج تحتها الصحاح للجوهري (ت.400هـ) والعباب للصاغاني (ت.650هـ)، ولسان العرب لابن منظور (ت.711هـ)، والقاموس المحيط للفيروز آبادي (ت.817هـ)، وتاج العروس للزبيدي (ت.1205هـ).

- مدرسة الترتيب الألفبائي بدون تقليب: ويضع تحتها كلاً من "أساس البلاغة" للزمخشري (ت.538هـ)، ومعاجم اليسوعيين، كالمنجد للويس معلوف (1946م)، وأقرب الموارد للشرتوني (1919م) وغيرهما، ومعاجم المجمع اللّغوي في القاهرة كالمعجم الوسيط والمعجم الكبير.

ويتبع عدنان الخطيب التقسيم السابق نفسه مع إضافة كتاب الحروف للشيباني (ت.206هـ)، و"المصباح المنير" للفيومي (ت.770هـ) إلى رمز معاجم مدرسة الترتيب الألفبائي بدون تقليب، وأضاف ديوان الأدب للفارابي (350هـ) إلى مدرسة الترتيب الألفبائي على آخر الكلمة[6].

ويضع أحمد مختار عمر المعاجم العربية ضمن ثلاث مدارس فقط وهي:

- مدرسة الترتيب المغربي: ويضع تحتها كلاّ من العين، والبارع، وتهذيب اللّغة والمحيط، ومختصر العين للزبيدي (ت.382هـ).

- مدرسة الترتيب الألفبائي على أول الكلمة: ويضمنها كلاّ من: الجمهرة، ومقاييس اللّغة، وأساس البلاغة.

- مدرسة الترتيب الألفبائي على أواخر الكلمة: ويضع فيها الصحاح، والعباب، ولسان العرب، وتاج العروس[7].

ويرى حلام الجيلالي أنّه ليس هناك أيّ رباط فكري أو نظري، يربط بين المعاجم التي يجعلها حسين نصار تنتمي إلى مدرسة واحدة، لأن الترتيب الشكلي للمداخل يظلّ تابعا للتأسيس النظري للمعجم وليس العكس، وهذا يجعل الترتيب الشكلي ذاته في حاجة إلى تبرير في بعض المعاجم التي وضعها في مدرسة واحدة كالجمهرة ومقاييس اللغة مثلاً، والملاحظة نفسها تقال إلى تقسيمات كل من "عدنان الخطيب" و"أحمد مختار"، و" عز الدين إسماعيل"...الخ[8].

ونستنتج من هذا كلّه أن الشيء الوحيد الّذي اعتمده معظم الدارسين المحدثين في تقسيماتهم للمعاجم إلى مدارس هو طريقة ترتيب المداخل ويرى في ذلك حلام الجيلالي أنّه لا يرقى إلى أن يكوّن مدرسة حقيقية من حيث التأسيس النظري.

أما إذا أردنا أن نميّز بين أهم المعاجم وفق النظريات الموظفة عبر المسار التطوّري للمعجم، فيمكن أن نتوقف لاستقراء أهم المحطات الكبرى للمعاجم العربية وهي:

1- **مرحلة المعاجم الابتكارية**: وتعدّ معاجم هذه المرحلة المرجع الأساسي للّسان العربي الفصيح، وحتى قبيل نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

وقد سار الرصيد اللّغوي لهذه المرحلة طبيعيا، وخضع لناموس التطور والنمو منذ العصر الجاهلي، واستجاب لأكثر مستجدات العصر الإسلامي في الألفاظ والدلالات المولّدة غالبًا، كما اكتملت أهم النظريات المعجمية المبتكرة في هذه المرحلة[9].

ويظهر من خلال هذه المرحلة بروز أهم النظريات المعجمية المبتكرة نجملها فيما يلي:

أ- نظرية العين الصوتية

وهي نظرية شمولية تترصد الظاهرة اللّغوية، وتحاول حصر الطاقة التوليدية للغة، وذلك بما يمكن حصره وتشكيله من ألفاظ وكلمات في حدود الحروف الهجائية العربية بطريقة رياضية، ثم التمييز المستعمل من المهمل والفصيح من الدخيل عن طريق الصوت قبل السماع أو الرواية في الغالب.

ويعدّ الخليل بن أحمد الفراهيدي أول مبتدع لهذه النظرية المعجمية، ساعدته في ذلك عدّة عوامل إلى استنباط هذه النظرية، ويرى حلام الجيلالي أن أهم هذه العوامل هي فكرة اعتقاده بنظرية المحاكاة في نشأة اللّغة، وهي نظرية تكاد تتفق وميولاته المعتزلية التي تحكّم العقل[10].

ب- نظرية جمهرة اللغة: وهي نظرية تقوم على أساس إثبات الشائع من اللّغة، أو ما يعبّر عنه بالآني المستقر أو السنكروني (Synchronique) مع إبعاد المهجور والحوشي والمستنكر والغريب.

ويتضح من هذه النظرية و التي كانت على يد اللّغوي أبي بكر محمّد بن ابن الحسن بن دريد (ت.321هـ) في كتابه (جمهرة اللّغة)؛ قال في مقدمة معجمه: "وإنّما أعرناه هذا الاسم، لأنّ اخترنا له الجمهور من كلام العرب وأرجأنا الوحشي والمستنكر والله المرشد للصواب"[11].

والملاحظ على ابن دريد تسجيله للرصيد اللّغوي الشائع، فهو لا يحاول حصر كل ما تكلّمت به العرب كما فعل الخليل، بل يسجّل المشهور منه، ولو كان غير صحيح، كما اعتنى عناية كبيرة بالمعرّب والدخيل، حتى أن مصطلح "دخيل" ينسب إلى ابن دريد، قال ابن منظور: "كلمة دخيل أدخلت في كلام العرب وليست منه استعملها ابن دريد في الجمهرة"[12]

كما نستنتج من هذا أن ابن دريد يعتمد في جمع الرصيد اللّغوي على الآنية ، ليسجل ما يفرضه الواقع الاستعمالي من الكلمات الحضارية التي لا يتم وضعها إلا عن طريق التوليد بنوعيه اللّفظي والدلالي، وهذا الاتجاه في جمع المادة اللغوية يختلف عمّا عني به الخليل في نظريته الصوتية ،كما يختلف عمّا عناه أصحاب المعاجم الأخرى التي اعتمدت الصحيح من الكلمات وحدها دون المحدثة والمولّدة[13].

وقد اتّخذ الترتيب الألفبائي عوض الترتيب الصوتي، وذلك ليس لصعوبته بل لشهره الترتيب الألفبائي وشيوعه؛ لأنّه كما يقول: "وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة إذ كانت بالقلوب أعبق وفي الأسماع أنفذ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة، وطالبها من هذه الجهة بعيد عن الحيرة ومشفيا على المراد"[14].

ويرى حلام الجيلالي أن نظرية جمهرة اللّغة قد وجدت لها تطبيقات في ضوء علم اللّغة الحديث الّذي يعتبر اللّغة كائنا حيًّا ينمو ويتطوّر، وبذلك تجسّدت أسس هذه النظرية من جديد

في المعجمية العربية الحديثة التي سارت في الاتجاه الوصفي؛ وبخاصة في معاجم النصف الثاني من القرن العشرين[15].

ج. نظرية صحاح اللّغة: وهي نظرية معجمية تقوم فكرتها على أنّ اللّسان العربي، قد اكتمل في نمو تطوّره؛ فيجب الالتزام بالصحيح من الألفاظ، وإغلاق باب التوليد والاجتهاد، وبذلك رسموا الحدود الاحتجاجية لانتهاء رواية اللّغة. وجعلوا الحدود المكانية شبه جزيرة العرب ، والحدود الزمانية آخر القرن الثاني للهجرة لعرب الأمصار، وآخر القرن الرابع لعرب البوادي.

وقد بدأت بوادر هذه النظرية تظهر مع أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت.370هـ) في كتابه تهذيب اللّغة، حيث أفصح عن اتجاهه هذا في مقدمة المعجم حين علّل تسميته بهذا الاسم؛ قال: "وقد سمّيت كتابي هذا تهذيب اللّغة لأنّي قصدت بما جمعت فيه نفي ما أدخل في لغات العرب من الألفاظ التي أزالتها الأغبياء عن صيغتها، وغيّرها الغتم عن سنتها، فهذبت ما جمعت في كتابي من التصحيف والخطأ بقدر علمي، ولم أحرص على تطوري الكتاب بالحشو الّذي لم أعرف أصله والغريب الّذي لم يسنده الثقات إلى العرب [16].

ونفهم من كلام الأزهري هذا أنّه رمى إلى هدفين في معجمه وهما:

- تصحيح اللّغة من التصحيف والخطأ.

- تنقيح اللغة مما دخلها من الألفاظ غير الصحيحة.

وإذا كانت نظرية الصحاح قد ظهرت بوادرها مع الأزهري فقد اكتملت دعائمها مع الجوهري في أواخر القرن الرابع الهجري (ت.400هـ) في كتابه "تاج اللّغة وصحاح العربية" الّذي يهدف فيه قبل كلّ شيء إلى الاكتفاء بإثبات الصحيح من مفردات اللّغة، قال جلال الدين السيوطي: "أوّل من التزم الصحيح مقتصرا عليه الإمام نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري، ولهذا سمي كتابه بالصحاح، وقال في خطبته: قد أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللّغة التي شرّف الله منزلتها، وجعل علم الدّين والدنيا منوطًا بمعرفتها، على ترتيب لم أسبق إليه وتهذيب لم أغلب عليه، بعد تحصيلها بالعراق رواية، وإتقانها دراية، ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية، ولم آل في ذلك نصحًا، ولا ادّخرت وُسعًا"[17].

وأضاف ياقوت الحموي في معجم الأدباء قائلاً:"كتاب الصحاح هو الّذي بأيدي النّاس اليوم وعليه اعتمادُهم، أحسن الجوهري تصنيفه، وجوّد تأليفه؛ وقرّب متناوله، بدل وضعه على قريحة سالمة ونفس عالمة، فهو أحسن من الجمهرة؛ وأوقع من تهذيب اللغة، وأقرب متناولاً من مجمل اللّغة"[18].

ويرى بعض المحدثين أن هناك عدّة عوامل فكرية ولغوية أدّت إلى ظهور هذه النّظرية في ذلك العصر، من أهمها الاقتصار على الصحيح من مفردات اللّغة، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وكذلك على أساس أن اللغة قد اكتملت ولا يجوز الوضع أو القياس أو التوليد أو الإضافة على ما سبق، أن تكلمت به العرب قبل القرن الرابع الهجري على أكبر تقدير؛ بنظرية الصحاح في إطار هذه المبادئ تكون قد أهملت عددًا كبيرًا من الألفاظ الحضارية والمصطلحات العلمية المولّدة والدخيلة مما جعل بعض المعاجم العربية القديمة تقف باللّغة زمانيا ومكانيا، وهذا أمر يجري في عكس التطور اللّغوي للغة العربية[19].

كما أنّ هذه النظرية قد وجدت لها أنصارًا كثيرين خلال مرحلة المعاجم الابتكارية قبل القرن الخامس الهجري و"وظفت في معاجم عديدة كالبارع للقالي (ت.356هـ) وتهذيب اللغة الأزهري (ت.370هـ) والمجمل لابن فارس (ت.395هـ) والصحاح الجوهري (ت.400هـ) وغيرهم[20].

و امتدت جذور هذه النظرية إلى ما بعد القرن الرابع الهجري، فلم يستطع أن يتخلّص منها أكثر المعجميين التقليديين، كابن سيده الأندلسي (ت.458هـ) وابن منظور (ت.711هـ) في لسان العرب وغيرهما[21].

وأدى بهم هذا النهج إلى إهمال عدد من الألفاظ كالمصطلحات العلمية التي ابتكرت على يد كبار العلماء في الطب، والنبات، والرياضيات، والفلك، والتاريخ والجغرافية وحتى في العلوم الشرعية كالفقه والتفسير، ولهذا السبب نظن أنّه ألفت معاجم مختصة لتدارك بعض النقص الحاصل في المعاجم السابقة الذكر في جانب المصطلحات العلمية، فألف الخوارزمي (ت.387هـ) موسوعته "مفاتيح العلوم".

وهذه النظرية قد تتعارض معطياتها وعلم اللّسان الحديث الّذي يعطي مجال الاستعمال في لغة المتكلم أهمية في الدرس اللّغوي الحديث، ولأنّ اللغة وعاء التجارب ودليل النشاط الإنساني ومظهر السلوك اليومي الّذي تقوم به الجماعة[21]. ولكلّ عصر ومنتجات علمية وحضارية وحركة فكرية مستمرة، والمعجم لا يستطيع أن يرصد مفردات قرن دون الآخر بل يواكب عجلة التاريخ والتطور الإنساني.

د. نظرية التأصيل: ويرى حلام الجيلالي في أنها نظرية اشتقاقية دلالية، تقوم فكرتها على أساس البحث في الأصول المعنوية للكلمات[22]، ويدخل في هذا الإطار النظري نوع من أنواع المعاجم المسماة المعاجم التأثيلية (Etymologique) والتي تعالج اللّفظ من زاويتين: زاوية تأثيلية أو أخرى تأصيلية، فبالمعجم التأثيلي وهو الّذي يبحث في أصول أشكال الألفاظ ليردها إلى اللسان الأصلي الّذي انبثقت عنه لأول مرّة، أما المعجم التأصيلي، فهو يبحث في أصول معاني الكلمات من حيث تشعّب معاني الجذر الواحد وإمكان ردها إلى المعنى الأصلي للمعنى الجذري[23].

لقد لاحظ بعض الدارسين اللغويين المحدثين أن ابن فارس (ت.395هـ) قد انفرد بهذه النظرية في معجمه مقاييس اللّغة، إذ لم يسبقه أحد ولم يخلفه أحد ومن المعجمين القدماء. فهو بهذا يعدّ أول مؤسس لمعجم الاشتقاق الدلالي في العربية،

وإن كان مسبوقا بفكرة الاشتقاق عمومًا، وقد اكتفى ابن فارس في معجمه بالجانب التأصيلي للمعاني المشتركة التي تدور حولها مشتقات الجذر الواحد ولم يتجاوزه إلى معالجة الجانب التأثيلي ليرد الكلمات المعرّبة عبر العربية إلى أصولها الأجنبية؛ وذلك على الرغم من أنّه ينبّه على اللّفظ الدخيل لا يستقيم مع نظريته[24].

كما أطلق ابن فارس على التأصيل الاشتقاقي مصطلح (المقاييس)، فهو يرى أن مشتقات أي جذر عربي صحيح، مهما تشعّبت أو تفرعت معانيه، يمكن إرجاعها إلى أصل معنوي واحد أو عددًا من الأصول المعنوية المشتركة.

ويتّضح مما سبق أن ابن فارس كان همّه الأوحد هو محاولة الربط بين معاني مشتقات الأصل الواحد بواسطة أصول عامة تتفرع عنها فروع مستعينًا بفكرة الاشتقاق.

ونستنتج من المرحلة الابتكارية في التأليف المعجمي عند العرب، أنّها أفرزت نظريات معجمية هامة تتجاوز التقسيم المدرسي المعروف لدى الدارسين المحدثين، وتتمايز من حيث نظرياتها إلى اللّغة العربية: "بحيث يمكن في ظلها تصنيف الطاقة التوليدية للغة إلى عدّة أرصدة، يمثل كل رصيد نظرية معجمية مستقلة بذاتها[25].

2ـ **مرحلة المعاجم التقليدية**: تبدأ هذه المرحلة بمسافة زمنية تبدأ من القرن الخامس الهجري إلى نهاية القرن الثاني عشر تقريبًا مع الزبيدي (ت.1205هـ) في تاج العروس، ويرى بعض الدارسين المحدثين أنّ هذه الفترة تميزت بركون الابتكار المعجمي، بالتزام أغلب المعاجميين بالنظريات والمناهج المعيارية القديمة التي لا تواكب التطورات الحضارية وما لها من أثر في الرصيد اللّغوي من حيث تغيّره الدلالي، ونموّه المطرد، وبذلك تأخذ المعجم العربي عدّة قرون عن النهضة المعجمية الحديثة[26].

والملاحظ أيضا من خلال مادة أهم المعاجم التي ألفت في هذه المرحلة، أن أغلب المعجميين قد التزموا من حيث جمع المادة وتوليدها بالحواجز الاحتجاجية التي رسمها الأقدمون، وبذلك دخلت المعاجم العربية في فترة صار اللاحق يقلّد فيها السابق، ولم تعد مادة حية يجمعها اللغويون من الناطقين بها بلسانهم، فعلى الرغم من تطورات دلالات الكثير من الألفاظ، وظهور الآلاف من الألفاظ الحضارية، وانكماش الكثير منها ابتداء من العصر العباسي، لم يسجّل مصنّفوا المعاجم أكثر الدلالات الجديدة، قال رمضان عبد التواب في هذا الشأن: "ولا نعلم فيما عدا الأزهري وابن جنّي لغويا آخر، أضاف إلى ما جمعه علماء القرنين الأول والثاني مادة جديدة؛ فقد اقتصرت جهود اللاحقين على تنظيم ما جمعه أسلافهم، ولم يحاول واحد منهم أن يدوّن ملاحظاته على الفروق بين تلك اللغة القديمة، لغة البدو في القرون الأولى، ولغة معاصريه، فلم يحاول واحد من علماء القرن الخامس الهجري مثلاً أن يبين لنا المعنى الّذي يفهمه معاصروه من لفظة جمعها زميل له في القرن الثاني الهجري، كما أنّه لم يبيّن لنا كيف كان معاصروه ينطقون بهذه اللّفظة في أحاديثهم، وهل كان هذا اللّفظ لا يزال على قيد الحياة، أم أنّه كان قد اندثر، ولحقه البلى، وأصبح في زمة التاريخ اللّغوي"[27].

وبهذا النهج في التأليف المعجمي قد ضاع الكثير من المصطلحات العلمية والألفاظ والمعاني المبتكرة في العصر العباسي. قال حلام الجيلالي: "قد أصبحت مصطلحات لغوية أو علمية مثل: (الزاوية المجسمة، الجبر، المقابلة، حجم، معادلة، مساحة...) وغيرها من المصطلحات الرياضياتية التي استعملها الخوارزمي محمد بن موسى (ت.235هـ) صاحب كتاب الجبر والمقابلة، في القرن الثالث الهجري، لا يستطيع صاحب لسان العرب الّذي عاش في القرن السابع الهجري ولا صاحب تاج العروس الّذي عاش في القرن الثاني عشر الهجري، أن يسجلها"[28].

ولكننا لا نستطيع أن ننكر جهود بعض المعجميين العرب في هذه المرحلة التقليدية، بإضافاتهم وابتكراتهم النظرية في المجال المعجمي مثل ابن سيده (ت.458هـ) في المخصّص، حيث حاول أن يرتب مواد المعجم وفق نظرية الحقول الدلالية ، وكذا الزمخشري (ت.538هـ) في معجمه أساس البلاغة حيث ابتدع فكرة المعجم الدلالي، قال فيه حسين نصّار: "رأى القرن الخامس اتجاها جديدًا في تأليف المعاجم العربية، بظهور أساس البلاغة للزمخشري، فقد ألف محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري أبو القاسم جار الله فخر خوارزم معجمه على أسس تختلف كل الاختلاف عما شاهدناه إلى ذلك الوقت في المعاجم الأخرى، ويظهر هذا الاتجاه أو ما يظهر في عنوان الكتاب نفسه فهو ليس بمحيط، ولا صحيح، ولا تهذيب، ولا بارع في اللّغة، وإنّما (أساس البلاغة) [29].

كما نستنتج من هذه المرحلة التقليدية في تأليف المعاجم، أنّها ظلّت محتفظة بما رسمه الأقدمون في حدود احتجاجية في جمع اللغة، والاقتصار على الصحيح دون المولّد والدخيل حديثًا، وإن كان من الألفاظ الحضارية المتداولة في عصرهم، كما أنّها لم تقدّم أية نظرية معجمية تواكب التطوّر اللّغوي فتفتح باب الوضع، والقياس، والتوليد وتسجيل الرّصيد اللغوي الوظيفي مع إسقاط الألفاظ الميتة أو المهملة.

وفيما يخص المادة المعجمية عند أغلبيتهم في نظر بعض المحدثين ظلت مختلطة بكثير من المعارف والثقافات العربية، كما حشو المعاجم بالأعلام العربية والأعجمية، وأسماء الأماكن والقصص والخرافات، مما يعدّ خلطًا بين المعجم الموسوعة ويؤدي إلى تضخمها[30].

وأما من حيث الترتيب فقد ظلت المداخل غير مرتبة داخليا، مما صعب المهمة كالباحثين عن الكلمات الصعبة، وظلّ أكثر المعجميين مرتبطا بمن سبق في الترتيب مع العلم أن الترتيب عند أصحاب المعاجم الابتكارية كان في الغالب خاضعًا لنظرياتهم المعجمية.

والملاحظ في تعريف المواد لم يبتكر التقليديون؛ أيّ منهج يفرّق بين أنواع المداخل، ويعرفها تعريفًا علميًا، فكثيرًا ما عرفوا الكلمات بعضها ببعض عن طريق ذكر المرادف أو الضدّ أو الشبيه أو النصّ على أن الكلمة معروفة، وأثناء إثبات الشواهد لم يميّزوا بين المعجم والنظام اللّساني مما جعلهم يعالجون كثيرًا من القضايا الصوتية والصرفية والنحوية عن طريق الشواهد دون أن يكون لذلك اتصال بدلالة الكلمة؛ فكثيرًا ما تعدّدت الشواهد دون تعدّد الدلالي للكلمة المراد تعريفها؛ فأدّى ذلك إلى وصم المعاجم العربية بسمة القصور، وإلى وجود ثغرة معجمية تقدّر بالقرون[31].

3ـ **مرحلة المعاجم التجديدية**: تعد الفترة المتأخرة من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) مرحلة نهضوية في الوطن العربي على عدّة أصعدة، ضمنها نجد توجّها جديدا في المعجمية العربية، ويبدو أن ذلك جاء نتيجة لضرورات حضارية علمية وتربوية دعت بإلحاح إلى سلوك طريقة جديدة في تصنيف معاجم حديثة، قادرة على مسايرة التطوّر اللّغوي والعلمي، من أجل تسهيل على الباحثين العرب بما يحتاجون إليه من ألفاظ حضارية ومصطلحات علمية وتعريفات دقيقة لما يصادفه في حياته اليومية.

ونجد الدواعي التي طرحت قضية تجديد المعاجم العربية في العصر الحديث تتمثل أهمها فيما يأتي:

أ- انتشار التعليم المبرمج: فقد كان للنهضة العالمية الحديثة أثر كبير في تطور المسار العلمي واللغوي، وبات هذا التطور كفيلا بتوجيه الأنظار العربية إلى العناية بالتعليم المبرمج وباللّغة العربية العلمية التي أصبحت تفتقد إليها مجالات متخصصة، ويحدد بعض الدارسين العرب أن النهضة العلمية في البلدان العربية لم تنطلق إلاّ في أواخر 1860م، وما رفقته من تدريس للمواد العلمية وتأليف الكتب في تخصصات مختلفة وتوفير المكتبات العامة.

ب- ظهور الطباعة: ويعدّ ظهور الطباعة في الوطن العربي عاملاً مباشرًا في طرح قضية تجديد المعاجم العربية، حيث ساعد على طبع المعاجم القديمة أو اختصارها لتسهيل عملية انتقائها، وتحرير البحوث والدراسات حولها تصحيحًا ونقدًا، كما ألّفت عدّة دراسات تصف المعاجم العربية، فكتب المستشرق الهولندي (دوزي) (1830) (R. DOZY م1883-م) تكملة للمعاجم العربية كما أخرج المستشرق البريطاني إدوارد لين (E. Lane) معجمه (مدّ القاموس) ثنائي اللّغة، ويعدّ هذا الأخير أول من حاول من المستشرقين الاستعانة بأمهات الكتب لاستخلاص المفردات من تراكيبها الأصلية[32].

ج- قصور المعاجم القديمة: فقد أصبحت المعاجم القديمة في نظر المحدثين العرب غير قادرة على مواكبة التطورات الحاصلة، وإمداد القارئ أو الباحث العربي بما يحتاجه من ألفاظ حضارية ومصطلحات علمية، لوجود ثغرة معجمية استمرت زهاء العشرة قرون، ومن هنا أدرك الباحثون المحدثون العرب أن المعاجم التقليدية غير مؤهلة لإمدادهم بما يحتاجون إليه من دلالات حديثة وتعريفات دقيقة وترتيب منسق للمداخل يسهّل عملية البحث عن الكلمات، ووجدوا أنفسهم مضطرّين إلى تجديد المعاجم العربية[33].

د- نشوء المجامع اللغوية: وهي هيئات علمية مختصة، وكان لنشوئها دور كبير في خدمة اللّغة العربية وبلورة نظرية المعجم العربي، ودفعه نحو التجديد ونقله من العمل الفردي إلى العمل الجماعي، فتوالى ظهورها في الوطن العربي منذ أوائل القرن العشرين وكانت كلها تهدف إلى خدمة اللّغة العربية وجعلها مسايرة للتطورات العلمية الحديثة، ونذكر أهمها باختصار:

- مجمع اللّغة العربية بدمشق: أنشئ سنة (1337هـ1919-م) ومن أهم أهدافه العناية باللّغة العربية والدين الإسلامي ويصدر هذا المجمع مجلة فصلية تهتم بشؤون اللغة العربية ونشر الدراسات حول قضاياها[34].

- المجمع العلمي اللبناني: أنشئ عام (1343هـ1928-م) وأهم أهدافه المحافظة على اللغة العربية والرفع من شأنها، غير أن هذا المجمع سرعان ما تعطّلت أعماله.

- مجمع اللغة العربية بالقاهرة: وقد تأسس عام (1351هـ-1932م) وكان يسمّى وقتئذ "مجمع اللّغة العربية الملكي" من أهم أغراضه أن يجعل اللّغة العربية مواكبة لمطالب العلوم والفنون المتقدمة، وملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر، وقد صدر عن المجمع عدد من المعاجم من أهمّها: المعجم الوسيط، والمعجم الوجيز.

- المجمع العلمي العراقي: تأسس سنة (1363هـ1945-م) ومن بين أهدافه السعي لجعل اللّغة العربية تواكب شؤون الحضارة العصرية، وإحياء التراث العلمي والأدبي ووضع المعاجم، وهو يصدر مجلة المجمع العلمي العراقي لنشر أبحاثه.

- مكتب تنسيق التعريب بالرباط: وقد أنشئ سنة (1383هـ-1962م) ثم أصبح تابعًا للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي تأسست سنة 1970م، وهو مكتب يهدف إلى تنسيق الجهود لتطوير اللّغة العربية عن طريق توحيد المصطلحات وتعريفها ونشر المعاجم، وهو يصدر مجلة فصلية "مجلة اللّسان العربي" تعنى بتوحيد المصطلحات بالوطن العربي.

- مجمع اللغة العربية بالأردن: تأسس سنة (1396هـ1976-م) عن اللجنة الأردنية للتعريب بالترجمة والنشر، ولا تختلف أهدافه عن المجامع السابقة، فهو يسعى إلى إحياء التراث العربي الإسلامي ووضع المصطلحات العلمية وتوحيدها.

- المجمع العلمي اللّغوي السعودي: أنشئ سنة (1404هـ1983-م) وهو يحرص على تحقيق الأهداف السابقة.

- المجمع الجزائري للغة العربية: أنشئ سنة (1406هـ-1986م) ومن أهم أهدافه إيجاد مصطلحات علمية دقيقة،

تأخذ بعين الاعتبار الاستعمال الوظيفي للكلمات حيث تعود اللغة العربية من جديد كما كانت في عصورها الذهبية: لغة إبداع وأداة احترام[35].

ولقد شهد العصر الحديث انطلاقة جديدة من تجديد المعاجم وهي محاولات لأفراد في شكل محاولات فردية؛ ووجدوا أنفسهم محاصرين بين اتجاهين في التأليف المعجمي؛ اتجاه تقليدي إذ لم يجرؤ على الحذق أو الزيادة في التراث المعجمي واللغوي أو في التصرف في ضبط دلالة ألفاظه، واتجاه الثاني هو تحرري تجديدي، وينظر إلى اللّغة نظرة وصفية في ضوء نظريات علم اللغة الحديث، ومن بين أهم الأفراد المؤلفين الجدد نجد "أبا الطيب الفاسي الشرقي" وكتابة الجاسوس على القاموس الّذي انتقد فيه القاموس المحيط للفيروز أبادي.

كما يعدّ فارس الشدياق (1888م) بعده من أهم للمجددين في حقل المعاجم العربية، غير أنّه في نظر بعض الدارسين المحدثين لم يستطع أن يقدم نموذجا تطبيقيا للمعجم العربي الحديث[36].

وظهر عن مؤلفين في الحقل المعجمي الحديث مثل بطرس البستاني (1883م) بمعجمه (محيط المحيط)، وتلاه سعيد الخوري الشرتوني (1919م)، وكذا الشيخ أحمد رضا حيث صدر معجمه "متن اللغة" سنة (1958م)، وقد وضعه بتكليف من المجمع العلمي العربي بدمشق وصدر في خمسة مجلّدات كبيرة الحجم.

ونستنتج مما سبق ذكره وحسب ما لاحظه بعض الدارسين المحدثين؛ أنه رغم الجهود المضنية التي بذلها هؤلاء الأفراد، لا تكاد تخلو أعمالهم من قصور في عدّة نواحي منها كالنظرة المزدوجة إلى اللغة المحكومة بقانون المحافظة على التراث، كما تركه الأقدمون، فلم يجرؤوا على التخلّي على ألاف الكلمات التي هجرها الاستعمال وأصبحت في حكم النسيان، كما أن اعتناءهم بالكلمات والدلالات الحديثة يظلّ يشوبه نوع من الحذر، ولم يتمكّنوا من ضبط الصلة بين المعجم والنظام اللساني، وأما التعاريف فظلّت تفتقر منهجا محدّدا وغالبًا ما اكتفوا بمنهج التعريف الاسمي.

وتبقى ملامح المعجم المعاصر جماعية، وصناعة تشترك فيها أمّة كاملة، نظرًا إلى التطوّر الهائل في المجالات الحضارية والتخصصات العلمية والفنية، ولكلّ عصر تميزه جهود معجمية تعكس تصوره وواقعه العلمي والفكري بصفة عامة ومن أمثلة المعاجم المعاصرة: "المعجم الوسيط" والّذي صدر عن مجمع اللغة العربية في القاهرة نجده في الطبعة الثالثة في سنة 1986م، وهو يعد بحق أوّل معجم يصدر عن هيئة مختصة ويخضع لعدّة قرارات مجمعية، وذلك باعتباره معجمًا جماعيًا صادرًا عن مؤسسة لغوية عليا.

الخاتمة

ونستنتج من هذه الدراسة، أن للمعجميين القدماء فضلا في جمع الثروة اللغوية في مصنفات ضخمة تعرف بالمعاجم. كما تميزت أيضا بمناهج مختلفة من حيث الترتيب و التبويب لمداخلها، إما بأوائلها أو أواخرها .

كما تأثر بمناهجهم بعض الدارسين المحدثين في مؤلفاتهم كالمنهج الرياضي و الصوتي...الخ.

و انتقد بعض الدارسين المحدثين القدماء كونهم وقعوا في بعض المآخذ و الأخطاء على أثر المناهج التي سارت عليها بعض المدارس المعجمية القديمة، وذلك لإهمالهم الجانب النظري للغة العربية و إغفال بعض المصطلحات .

كما حاول بعضهم التلطيف منها في أبحاثهم ومؤلفاتهم الحديثة.

ومع ذلك تبقى هذه المعاجم تشكل للأجيال المتأخرة ثراتا ضخما من الثروة اللغوية ومرجعا للتنظير المعجمي .

الهوامش

1- الزمخشري :أساس البلغة دار المعرفة للطباعة و النشر بيروت ،دت ،مادة (درس).

2- حلام الجيلالي المعاجمية العربية قراءة في التأسيس النظري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، وهران ط ، 1997،

ص 38.

3- المرجع نفسه

4- محمد أحمد أبو الفرج: المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديثة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ط، 1966م، ص27. وينظر: جلال الدين السيوطي: المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، المكتبة العصرية صيدا، 1987، ج1، ص94.

5- ينظر، حلام الجيلالي: المعاجمية العربية قراءة في التأسيس النظري، ص34-35.

6- ينظر، المرجع نفسه، ص35.

7- ينظر، المرجع نفسه، ص37.

8- حلام الجيلالي: المعاجمية العربية قراءة في التأسيس النظري، ص41.

9- ينظر، حلام الجيلالي: المعاجمية العربية قراءة في التأسيس النظري ، ص42.

10- ابن دريد: جمهرة اللّغة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 2005، ج1، ص19.

11- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر بيروت، لبنان، 1968، ص241 مادة (دخل).

12- حلام الجيلالي: المعاجمية العربية قراءة في التأسيس النظري، ص55.

13- ابن دريد: جمهرة اللغة، 18/1.

14- حلام الجيلالي: المرجع السابق، ص57.

15- الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964، ج1، ص54.

16- جلال الدين السيوطي: المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، 97/1.

17- المرجع نفسه، 98/1-99.

18- ينظر، حلام الجيلالي: المعاجمية العربية قراءة في التأسيس النظري، ص60.

19- ينظر، حلام الجيلالي: المعاجمية العربية قراءة في التأسيس النظري، ص61.

20- جلال الدين السيوطي: المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، 49/1.

21- تمام حسان: اللّغة بين المعيارية والوصفية، الدار البيضاء، مطبعة النجاح

الحديدة، 1980، ص07.

22- حلام الجيلالي: المعاجمية العربية قراءة في التأسيس النظري، ص62.

23- المرجع نفسه، ص63.

24- ينظر: المرجع نفسه.

25- حلام الجيلالي: المعاجمية العربية قراءة في التأسيس النظري، ص64.

26- المرجع نفسه، ص68.

27- رمضان عبد التواب: لحن العامة والتطور اللغوي، القاهرة، ط1، 1967، ص62.

28- حلام الجيلالي: المعاجمية العربية قراءة في التأسيس النظري، ص69-70.

29- د.حسين نصار: المعجم العربي نشأته وتطوّره، دار مصر للطباعة، ط4، 1988، ج1، ص654.

30- حلام الجيلالي: المعاجمية العربية قراءة في التأسيس النظري، ص73.

31- المرجع نفسه، ص74.

32- ينظر، حلام الجيلالي: المعاجمية العربية قراءة في التأسيس النظري، ص76.

33- ينظر: المرجع نفسه، ص77.

34- ينظر، المرجع نفسه، ص78.

35- نظر: حلام الجيلالي: المعاجمية العربية قراءة في التأسيس النظري، ص80.

ينظر: المرجع نفسه، ص. 36)